

حسن البنا

الرجل القرآنى

بقلم الكاتب الأمريكى
روبير جاكسون
ترجمة : أنور الجندى



حسن البنـــا
الرجل القرآنى

تاليف : روبير جاكسون
ترجمة : انور الجندى

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ القاهرة

الطبعة الاولى
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فى فبراير سنة ١٩٤٦ ، كنت فى زيارة للقاهرة .. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذى يتبعه نصف مليون شخص ، وكتبت فى النيويورك كرونيكل بالنص :

« زرت هذا الأسبوع رجلا قد يصبح من أبرز الرجال فى التاريخ المعاصر . وقد يختفى اسمه اذا كانت الحوادث أكبر منه . ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الاخوان » .

هذا ما كتبته منذ خمس سنوات ، وقد صدقتنى الأحداث فيما ذهبت اليه، فقد ذهب الرجل مبكرا.. وكان أمل الشرق فى صراعه مع المستعمر . وأنا أفهم جيدا أن الشرق يطمح الى مصلح يضم صفوفه . ويرد له كيانه ، غير أنه فى اليوم الذى بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف .. وبطريقة شاذة ..

هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلا بالكنز الذى يقع فى يده .. لقد لفت هذا الرجل نظرى بصورته الفذة ، عندما كنت أزور القاهرة بعد أن التقيت بطائفة كبرى من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها .

كان هذا الرجل خلاب المظهر ، دقيق العبارة ، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية . لقد حاول الأتباع الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصوروا لى

اهداف هذه الدعوة ، وافاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعنى .

وظل الرجل صامتا . حتى اذا بدت له الحيرة فى وجهى . قال لهم : قولوا له شيئا واحدا : هل قرات عن محمد ؟ قلت : نعم . قال : هل عرفت ما دعا اليه وصنعه ؟ قلت : نعم . قال : هذا هو ما نريده .

وكان فى هذه الكلمات القليلة ما اغنانى عن الكثير مما حاول البعض من انصار البنا أن يقولوه لى .

.. لفت نظرى الى هذا الرجل سمته البسيط ، ومظهره العادى ، وثقته التى لا حـــد لها بنفسه ، وايمانه العجيب بفكرته .

كنت اتوقع ان يجىء اليوم الذى يسيطر فيـه هذا الرجل على الزعامة الشعبية. لافى مصر وحدها ، بل فى الشرق كله .

وسافرت من مصر بعـــد ان حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه . واهدافه وحياته، وقد قراتها جميعـا واخذت أقارن بينه وبين جمـال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد احمد المهدى، والسيد السنوسى ، ومحمد بن عبدالوهاب ، فوصل

بى البحث الى ان الرجل قد افاد من تجارب هؤلاء جميعا ، واخذ خير ما عندهم ، وامكنه ان يتفادى ما وقعوا فيه من اخطاء . ومن امثلة ذلك انه جمع بين وسيلتين متعارضتين ، جرى على احداهما الأفغانى وارتضى الأخرى محمد عبده .

.. كان الأفغانى يرى الاصلاح عن طريق الحكم ؛ ويراه محمد عبده عن طريق التربية .. وقد استطاع حسن البنا ان يدمج الوسيلتين معا ، وان يأخذ بهما جميعا ، كما انه وصل الى مالم يصلا اليه، وهو جمع صفوة المثقفين من الطبقات والثقافات المختلفة الى مذهب موحد ، وهدف محدد .

ثم اخذت اتتبع خطوات الرجل بعد ان عدت من امريكا وانا مشغول به حتى اثير حوله غبار الشبهات حينا ، مما انتهى الى اعتقال انصاره ، وهى مرحلة كان من الضرورى ان يمر بها اتباعه ، ثم استشهاده قبل أن يتم رسالته .

وبالرغم من اننى كنت اسمع فى القاهرة ان الرجل لم يعمل شيئا حتى الآن وانه لم يزد على جمع مجموعات ضخمة من الشباب حوله ، غير ان معركة فلسطين ، ومعركة التحرير ، الأخيرة فى القناة ، قد اثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة .. قل ان تجد لها مثيلا ، الا فى تاريخ العهد الاول للدعوة الاسلامية .

كل ما استطيع ان اقوله هنا ، ان الرجل افلت من غوائل المراة والمال والجاه ، وهى المغريات الثلاث التى سلطها المستعمر على المجاهدين وقد فشلت كل المحاولات التى بذلت فى سبيل اغرائه .

وقد اعانه على ذلك صوفيته الصادقة ، وزهده الطبيعى ، فقد تزوج مبكرا ، وعاش فقيرا ، وجعل جاهه فى ثقة اولئك الذين التفوا حوله ، وامضى حياته القصيرة المريضة مجانبا لميادين الشهرة الكاذبة ، واسباب الترف الرخيص .

وكان يترقب الاحداث فى صبر ويلقاها فى هدوء ، ويتعرض لها فى اطمئنان ، ويواجهها فى جراة .

لقد شاءت الاقدار ان يرتبط تاريخ ولادته ، وتاريخ وفاته بحادثين من اضخم الاحداث فى الشرق فقد ولد عام ١٩٠٦ وهو عام دنشواى ، ومات عام ١٩٤٩ ، وهو عام اسرائيل ، التى قامت شكليا سنة ١٩٤٨ وواقعيا سنة ١٩٤٩ .

وكان الرجل عجيبا فى معاملة خصومه وانصاره على السواء ، كان لا يهاجم خصومه ولايصارعهم بقدر ما يحاول اقناعهم وكسبهم الى صفه ، وكان يرى ان الصراع بين هيئتين لا ياتى بالنتائج المرجوة .

وكان يؤمن بالخصومة الفكرية ، ولا يحولها الى خصومه شخصية ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من ايذاء معاصريه ومنافسيه ، فقد اعلنت عليه الاحزاب حربا عنيفة .. كان الرجل يقتفى خطـــوات عمر وعلى ، ويصارع فى مثل بيئة الحسين ، فمات مثلهم شهيدا .

لقد سمعت الكثير من خصومه، وكان هذا طبيعيا ، بل كان من الضرورى ان يختلف الناس فى رجـــل استطاع ان يجمــع حوله هذا الحشد الضخم من الناس بسحر حديثه وجمال منطقه ، وقــد انصرف هؤلاء من حول الاحزاب، والجماعات والفرق الصوفية والمقاهى ودور اللهو .

وكان لا بد ان يصبح هذا مثار حقد بعض الناس الذين ادهشهم ان يستطيع هذا الرجل المنجرد الفقير ان يجمع اليه مثل هذا الشباب .

ومن الأمور التى لفتت نظرى انه اخذ من عمــر خصــلة من ابرز خصاله ، تلك هى ابعــاد الأهل عن مغانم الدعوة ، فقد ظل عبدالرحمن ومحمد وعبــد الباسط ، وهم اخوته ، بعيدين عن كبريات المناصب، ولطالمــا كان يحاسبهم، كماكان عمر يحاسب اهــــله ويضاعف لهم العقوبة اذا قصروا .

وقد اتيح لى ان التقى بوالده الوقور ، الشيخ عبدالرحمن البنا ، وسمعته يتحدثمع بعض الاخوان،

انه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب فى أمر الاسلام واكتفى بذلك ، وقد رد عليه الاستاذ البنا بانه منشرح الصدر لمعالجة الاسلام عن طريق تآلف الرجال .

ثم يتحدث جاكسون عن نشأة حسن البنا وافكاره فيقول :

... فى الازقة الضيقة فى أحشاء القاهرة ، فى حارة الروم ، وسوق السلاح وعطفة نافع ، وحارة التمانرجى .. بدأ الرجل يعمل ، وتجمع حوله نفر قليل ، وكان حسن البنا الداعية الأول فى الشرق الذى قدم للناس برنامجا مدروسا كاملا ، لم يفعل ذلك أحد قبله ، لم يفعله جمال الدين ولا محمد عبده ، ولم يفعله زعماء الاحزاب والجماعات الذين لمعت أسماؤهم بعد الحرب العالمية الاولى ..

... واستطيع بناء على دراساتى الواسعة ان اقول أن حياة الرجل وتصرفاته كانت تطبيقا صادقا للمبادىء التى نادى بها . وقد منحه « الاسلام » كما كان يفهمه ويدعو اليه ، حلة متألقة ، قوية الاثر فى النفوس ، لم تتح لزعماء السياسة ولا لرجال الدين !

لم يكن من الذين يشترون النجاح بثمن بخس ، ولم يجعل الواسطه مبررة للغاية ، كما يفعل رجال السياسة ، ولذلك كان طريقه مليئا بالاشواك ، وكانت

آية متاعبه انه يعمل فى مجرى تراكمت فيــه الجنادل والصخور ، وكان هذا مما يدعوه الى ان يدفع اتباعه الى التسامى ويدفعهم الى التغلب على مغريات عصرهم والاستعلاء على الشـــهوات التى ترتطم بسفن النجاة فتحول دون الوصول الى البر .

كان يريد ان يصل الى الحل الامثل ، مهما طال طريقه ، ولذلك رفض المساومة ؛ والغى من برنامجه انصاف الحلول ، وداوم فى الحاح القول بانه لا تجزئة فى الحق المقدس فى الحرية والوطنيــة والسيادة .. وكان هذا مما سبب له المتاعب والاذى .

وراعت بعض من حوله الثمرة ، وعجزت اعصابهم عن أن تقاوم البريق ، فسقطوا فى منتصف الطريق .

كان يؤمن بالواقعية ويفهم الاشياء على حقيقتها ، مجردة من الأوهام ، وكان يبدو ـ حين تلقاه ـ هادئا غاية الهدوء . وفى قلبه مرجل يغلى ، ولهيب يضطرم فقد كان الرجل غيورا على الوطن الاسلامى ؛ يتحرق كلما سمع بأن جزءا منه قد أصابه سوء اوالم به اذى . ولكنه لم يكن يصرف غضبته ـ كبعض الزعماء ـ فى مصارف الكلام أو الضجيج أو الصياح ؛ ولا ينفس عن نفسه بالأوهام ، وانما يوجه هــذه الطاقة القوية الى العمل والانشاء والاستعداد لليوم الذى يمكن أن تتحقق فيه آمال الشعوب .

وكان فى عقله مرونة ، وفى تفكيره تحرر، وفى روحه اشراق ، وفى اعماقه ايمان قوى جارف .

وكان متواضعا تواضع من يعرف قدره ، متفائلا، عف اللسان ، عف القلم ، يجل نفسه عن ان يجرى مجرى اصحاب الألسنة الحداد .

كان مذهبه السياسى ان يرد مادة الاخلاق الى صميم السياسة بعد ان نزعت منها ، وبعد ان قيل ان السياسة والاخلاق لا يجتمعان .

وكان يريد ان يكذب قول تاليران : « ان اللغة لا تستخدم الا لاخفاء آرائنا الحقيقية » فقد كان ينكر ان يضلل السياسى سامعيه او اتباعه، او امته .وكان يعمل على ان يسمو بالجماهير ، ورجل الشارع ، فوق خداع السياسة ، وتضليل رجال الأحزاب .

وكان يوم الثلاثاء .. يوما مشهودا يتجمع فيه بعض مئات من انحاء القاهرة ليستمعوا الى هذا الرجل الذى يصعد المنصة فى جلبابه الأبيض وعباءته البيضاء وعمامته الجميلة ، فيجيل النظر فى الحاضرين لحظة .. بينما تنطلق الحناجر بالهتاف ..

.. ولا تدهشك خطابته بقدر ما تدهشك اجابته

من الأسئلة التى كان بعضها يتصل بشخصيته وحياته واسرته .

وقد سئل مرة بعد ان ترك عمله فى الحكومة ورفض مرتب الجريدة الضخم الذى كان يبلغ مائة جنيه .. مم ياكل .. فقال فى بساطة : كان محمد ياكل من مال خديجة وانا آكل من مال « اخ خديجة» نقصد صهره ..

وكان اعجب ما فى الرجل صبره على الرحلات فى الصعيد .. هذه الرحلات التى لاتبدأ الافى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان.. وفى احشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام .

وهناك تراه ، غاية فى القوة واعتدال المزاج .. لا الشمس اللافحة ، ولا متاعب الرحلة .. تؤثر فيه ولا هو يضيق بها.. تراه منطلقا كالسهم ، منصوب القامة يتحدث الى من حوله ، ويستمع ، ويفصل فى الامور .

وقد امدته هذه الرحلات ، فى خمسةعشر عاما ، زار خلالها اكثر من الفى قرية ، وزار كل قرية بضعة مرات ، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيدوللأسر والعائلات والبيوتات واحداثها وامجادها

وما ارتفع منهـــا وما انخفض .. والوانها السياسية وانرها فى قراها وبلادها ورضا الناس عنها او بغضهم لها .. وما بين البلاد افرادا واحزابا وهيئات وطوائف من خلافات او حزازات .. كان يزور احيانا بلدا من ابلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها ، وكل عائلة تود ان تستأثر به لتنتصر على الاخرى ، فيقصد الى المسجد مباشرة ، او بغيرطريق سفره فلا يستقبله احد الا بعد ان يكون قدقصد الى دار عامل فقير فى البلد ..

.. وكنت اذا قلت له فلان .. الحسينى مثلا او الحديدى او الحمصانى قال لك .. ان هذا الاسم تحمله خمس اسر او اربع . . احـــداها فى القاهرة والثانية فى دمنهور والثالثة فى الزقازيق والرابعة فى .. فأيها تقصد ؟

وكانت هذه الزيارات المتوالية طوال هذه السنوات المتتالية ، قد كونت له رايا فى الناس .. فقل ان تكون قرية فى مصر لايعرف الرجل شبابها واعيانها ووزراءها ورجال الاحزاب والدين والمتصوفة فيها .. ولا يكون قد تحـــدث اليهم واستمع منهم .. وعرف آمالهم ورغباتهم ، وفى خلال هـــذه الزيارات .. كنت ترى الرجل بسيطا غاية البساطة ينام فى الاكواخ احيانا ، ويجلس على « المصاطب » ، وياكل مايقدم له . .

لا يحرص الا على شيء واحد هو الا يفهم الناس عنه انه شيخ طريقة .. او من الطامعين فى المنفعة العاجلة .

ولقد حدثنى انه كان يدخل بلدا من البلاد احيانا لا يعرف فيه أحدا فيقصد الى المسجد ، فيصلى مع الناس، ثم يتحدث بعد الصلاة عن الاسلام .. واحيانا ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت راسه .. والتف بعباءته . ولاشك وشبانا ، مثقفين وعوام . . وانه قد استمع اليهم وقال لهم .. وافاد منهم خبرة ضخمة واسعة .. اضافها الى علمه وثقافته .. وانى على ثقة من ان حسن البنا رجل لا ضريب له فى هذا العصر ، وانه قد مر فى تاريخ مصر ، مرور الطيف العابر ... الذى لا يتكرر ..

« كان لابد ان يموت هذاالرجل الذى صنع التاريخ وحول مجرى الطريق شهيدا .. كما مات عمر وعلى والحسين ، فقد كان الرجل يقتفى خطواتهم .

مات فى عمر الزهر النضير ، وفى نفس السن التى مات فيها كثير من العباقرة ورجال الفكر والفن .. وقضى وهو يسطع ويتالق .

وعاش الرجل كل لحظة من حياته ، بعد ان

عجزت كل وسائل الاغراء فى تحويله عن «نقاء» الفكرة وسلامة الهدف .

لم يحن راسه ، ولم يتراجع ولم يتردد امام المثبطات ولا المهددات .. وكان الرجل قذى فى عيون بعض الناس ، وحاول الكثيرون ان يفيدوا من القوة التى يسيطر عليها ، فقال لهم ان انصاره ليسوا عصا فى يد أحد ، وانهم لله وحده . وحاول البعض ان يضموه اليهم او يطووه ، فكان أصلب عودا من ان يخدع او ينطوى ..

وكان على بساطته التى تظهر للمتحدث اليه ، بعيد الغورالى الدرجةالتى لاتفلت متصلا به اومتحدثا اليه من ان يقع فى شركه .. ويؤمن بالفكرة التى يدعو اليها ..

وكان لا يواجه الا من يعترض طريق دعوته ، وكان يستر من لم يكشف خصومته . وكان لا يهاجم عهدا مادام هذا العهد لا يحول دون الامتداد الطبيعى لدعوته وكان يدخر قوته للوصن ، ويكبر نفسه ودعوته من أن يكونا اداة صراع داخلي .. وظن بعض الناس ان هذا ضعف ولين ومسايرة ، وماكان كذلك ، فالرجل بطبيعتهلم يكن يحب الصراع فى معركة جانبية، ولايقبل توزيعقواه .. وانما يؤمن بالتطور والانتقالمن مرحلة

الى مرحلة ، ومن دور الى دور على اساس النضج والتكامل ، وكان هذا يزعج خصوم الوطن الذى لم يعهد سياسة تعلو علي المطامع الفردية ، وتتعالى على الاغراض الذاتية، وتنقى جوها من الدوافع الشخصية الخاصة .

وكان الرجل على قدرته الفائقة فى ضبط اعصابه كيسا فى مواجهة الامور ، لبقا فى استقبال الاحداث والازمات .

والى هذا كله كان غاية الاعتدال ، فكان يعيش براتب لا يزيد على راتبه المدرسى المحدود ، وبين يديه الأموال الضخمة المعروضة من اتباعه ، وحوله من العاملين معه من يصل دخله الى ضعف او اضعاف ما يحصل عليه .

زهد وبساطة

وكان فى بيته مثال الزهادة ، وفى ملبسه مثال البساطة ، وكنت تلقاه فى تلك الحجرة المتواضعة الفراش ذات السجادة العتيقة والمكتبة الضخمة ، فلاتراه يختلف عن اى انسان عادى، الا ذلك الاشعاع القوى والبريق اللامع الذى تبعثه عيناه . والذى لا يقوى الكثيرون علىمواجهته ، فاذا تحدث سمعت من الكلمات القليلة المعدودة موجزا واضحا للقضايا المطولة التى تحتويها المجلدات ، وكان الى هذه الثقافة

الواسعة الضخمة ، قــديرا على فهم الأشخاص . لا يفاجئك بالراى المعارض ، ولا يصدمك بما يخالف مذهبك ، وانما يحتال عليك حتى يصــل الى قلبك ويتصل بك فيمــا يتفق معك عليه .. ويمــذرك فيما تختلفان فيه . وهو واسع الأفق الى ابعد حد، يفتح النوافذ للهواء الطلق ، فلا يكره حرية الراى ولا يضيق بالراى المعارض، وقداستطاع ان يحمل الراى الجديد الى الجماهير دون أن يصطدم بهم .. هذا الجديد الذى لو عرض بغير لباقة لوقفوا ضده وحاربوه . . لقد نقلهم من وراثياتهم ، وغير فهمهم للدين : وحول اتجاههم فى الحياة واعطاهم الهدف وملأ صــدورهم بالأمل فى الحرية والقوة .

وكان له من صفات الزعماء ، صوته الذى تتمثل فيه القوة والعاطفة ، وبيانه الذى يصــل الى نفوس الجماهير ولا تنبو عنه اذواق المثقفين . وتلك اللباقة والحنكة والمهارة فى ادارة الحديث والاقناع .

وبهذه الصفات جميعها استطاع كسب هذه الطائفة الضخمة من الأنصار فى هذاالوقت القصير من الزمن، فحول وجهات نظرها ، ونقلها نقلة واســعة .. دون ارتطام أو صراع ..

كان سمته البسيط ولحيته الخفيفة، وذلك المظهر

الذى لا تجد فيه تكلف بعض العلماء ، ولا العنجهية ولا السذاجة .. قد اكسبه الوقار ..

ولقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس .. عجب لها كل من رآها واتصل بها.. كان فيه من الساسة دهاؤهم ، ومن القادة قوتهم ، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية ايمانهم، ومن الرياضيين حماسهم ، ومن الفلاسفة مقاييسهم ، ومن الخطباء لباقتهم ومن الكتاب رصانتهم .

وكان كل جانب من هذه الجوانب يبرز كطابع خاص فى الوقت المناسب ، ولكل هذه الصفات التى تقرؤها فى كتب شمائل الصحابة والتابعين ، لم يكن مقدرا ان يعيش طويلا فى الشرق .. وكان لابد ان يموت باكرا ، فقد كان غريبا عن طبيعة المجتمع ، يبدو كأنه الكلمة التى سبقت وقتها ، أو لم يأت وقتها بعد .

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين ، امام مثل هذاالرجل .. الذى أعلى كلمة الاسلام على نحو جديد .. وكشف لرجل الشارع حقيقة وجوده ومصيره وجمع الناس على كلمة الله .. وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة .. واعتدلت لهجات الكتاب ، وبدا بعضهم يجرى فى ركب « الريح الاسلامية » .

ثقافة حسن البنا

ولم تكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة ، مما عرف العالم فى الشرق اوفى الغرب ، فى القديم او فى الحديث .. لم يبحثها او يقراها او يدرس ابطالها ، وحظوظهم من النجاح او الفشل ، او يحمل منها ما يصلح لتجاريبه واعماله .

كان يقول كل شىء ، ولا تحس انه جرح او اساء .. وكان يوجه النقد فى ثوب الرواية او المثل ، وكان يضع الخطوط يترك لاتباعه التفاصيل .

كان قديرا على انيحدث كلا بلغته وفى ميدانه وعلى طريقته ، وفى حدود هواه وعلى الوتر الذى يحس به ، وعلى « الجرح » الذى يثيره .

ويعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية واهل السنة . ويعرف لهجات الاقاليم فى الدلتا وفى الصحراء وفى مصر الوسطى والعليا وتقاليدها ، بل انه يعرف لهجات الجزارين والفتوات ، واهالى بعض احياء القاهرة الذين تتمثل فيهم صفات معينة بارزة ، وكان فى احاديثه اليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم .

بل كانيعرف لغة اللصوص وقاطعى الطريق

والقتلة ، وقد القى اليهم مرة حديثا ، وهو يستمد موضوع حديثه ـ اثناء سياحاته فى الاقاليم وفى كل بلد ـ من مشاكلها ووقائعها وخلافاتها، ويربطه فى لباقة مع دعوته ومعالمها الكبرى ، فيجيء كلامه عجبا .. يأخذ بالالباب .

كان يقول للفلاحين فى الريف « عندنا زرعتان .. احداهما سريعة النماء كالقثاء . والاخرى طويلة كالقطن » .

لم يعتمد يوما على الخطابة ، ولا تهويشها ولا اثارة العواطف على طريقة الصياح والهياج .. ولكنه يعتمد على الحقائق ، وهو يستثير العاطفة باقناع العقل ، ويلهب الروح بالمعنى لا باللفظ ، وبالهدوء لا بالثورة، وبالحجة لا بالتهويش .

ويعد « الحديث » عند بعض الناس آيته الكبرى غير اننى علمت من بعض المتصلين به .. انها آخر مواهبه فقد كانت ابلغ مواهبه القدرة على الاقناع ، وكسب « الفرد » بعد « الفرد » فيربطه به برباط لا ينفصم ، فيراه صاحبه صديقا خاصا ، وتقوم بينه وبين كل فرد يعرفه صداقة خاصة خالصة، يكون معها فى بعض الأحيان مناجاة ، وتنتقل بالتعرف على شئون الوظيفة والعمل والأسرة والاطفال .

وهذه اقوى مظاهر عظمته ، فهو قد يكسب

هؤلاء الاتباع فردا فردا ، واصاب منـــابع ارواحهم هدفا هدفا ، وان لم يكسبها جملة ولا على صــفة جماعية ، وقد استطاع بحصافته وقوته وجبروته ان ينقلها من عقائدهاوافكارها سواء اكانت سياسية ام دينية ، الى مذهبه وفكرته .. فتنسى ذلك الماضي ، بل وتستغفر الله عنــــه ، وتراه كانمـا كان اثما او خطا .

ومن ابرز أعمال هذا الرجل ، انه جعــــل حب الوطن جزءا من العاطفة الروحية فاعلى قدر الوطن واعز قيمة الحرية ، وجعل ما بين الغنى والفقير حقــا وليس احسانا ، وبين الرئيس والمرءوس صلة وتعاونا وليس سيادة وبين الحاكم والشعب مسئولية وليس تسلطا .

وتلك من توجيهات القرآن ، غير انه اعلنها هــو على صورة جديدة لم تكن واضحة من قبل .

السماحة والتقشف والتنظيم

لم يكن الرجل القرآني ، فيما علمت يسعى الى فتنة ، أو يؤمن بالطفرة .. ولكنه كان يريد ان يقيم مجتمعا صالحا قويا حرا ، وينشىء جيـــلا فيه كل خصائص الاصالة الشرقية ..

لقد ظهرت حركات اصلاحية كثيرة خلال هــذا القرن .. في الهند ومصر والسودان وشمال افريقيا

.. وقد احدثت هزات لا باس بها ولكنها لم تنتج آثارا ايجابية ثابتة ..

وقد جاء هذا نتيجة لعجـــز بعض المصلحين عن ضبط اعصابهم عند مواجهة الاحداث واندفاعهم الى الحد الذى وصل بهم الى مرتبة الجرح قبل ان يتم البناء ، كما جــاء اثرا من آثار عزوفهم عن الاتصـــال بالشعب وتكوين راى عام مثقف .

اختفت هذه الدعوات ، وبقيت عبارات على الالسن وكلمات فى بطون الكتب ، حتى قيض لها ان تبعث من جديد وان تستوفى شرائطها ومعالمها .. وان تاخـذ فترة الحضانة الكافية لنضجها ، وافاد الرجـــل من تجارب من ســـبقوه ، ومن تاريخ القـــادة والمفكرين والزعماء .. الذين حملوا لواء دعوة الاسلام ، ولم يقنع بان يكون مثلهم .. ولكنه ذهب الى آخر الشــوط ، فاراد ان يستمد من عمر وخالد وابى بكر .. فاخذ من ابى بكر الســـماحة ، ومن عمر التقشف ـ ومن خالد عبقرية التنظيم .

نقد الحضارة الغربية

وقد استطاع الرجل رغم كل ما دبر لوضـــع حد لدعوته اوحياته ، ان يعمل وان يضع فى الارض البذرة الجديدة ، بذرة المصحف ، البذرة التى لا تموت بعد

أن ذوت شجرتها القديمة ، ولم يمت الرجل الا بعد أن لرتفعت الشجرة فى الفضاء واستقرت .

لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث الذين كانوا يسخرون من ثلاث كلمات : « شرق واسلام وقرآن » كان الرجل يريد ان يقول : آن للشرق ان يمحص افكار الغرب قبـــل ان يعتنقها، بعدان غدت الحضارة الغربيةفى نظر اصحابها لا توف بما يطلب منها ، كان يقول : علينا أن نزن هذه القيم وأن نعتقد ان ما عندنا لا يقل عما عند الغرب او على الاقــل لا يستحق الاهمال ، وانعلى الشرق ان ينشىء للدنيا حضارة جديدة ، تكون اصلح من حضارة الغرب ، قوامها امتزاج الروح بالمادة واتصال السماء بالارض وما كنت تعرض لامر من امور الحضارة الغربية الا رده الى مصادره الاولى فى الحضارة الاسلامية ، او فى القرآن والسنة والتاريخ .

كان الرجل القرآنى يؤمن بأن الاسلام قوة نفسية قائمة فى ضمير الشرق وانها تستطيع ان تمده بالحيوية التى تمكن له فى الارض وتتيــح له الزحف الى قواعده واستخلاص حقوقه وحرياته .

كان يؤمن بان الشرق وحدة قائمة كاملة .

كان لايخاف الموت

استطاع حسن البنا ان يؤلف بين طائفة ضخمة من

الاتباع بسحر حديثه ، وجمال منطقه ، وروعة بيانه ، فتصرف هذه المجموعه الضخمه من حول الاحزاب والجماعات والفرق الصوفيه ، وتنضوى تحت لوائه وتطمئن له وتثق به .

كان هذا مثار حسد الناس ، ومثار حقد بعض ذوى الراى . وكان خليقا بهم ان ينقموا وان يحسدوا هذا الرجل المتجرد . الفقير . على انه استطاع ان يجمع الناس اليه بوسائل غاية فى البساطة واليسر ، وهى لباقته وحسن حديثه .. فيرفعهم فوق المطامع الماديه التى يجتمع عليها الناس عادة .

وكان طبيعيا ان يتنكر له بعض الناس ، وان يذيعوا عنه بعض المرجفات فليس اشد وقعا فى نفوسهم من ان يسلبهم احد سلطانا كان لهم . وليس ابعد اثرا فى نفوسهم من ان يجىء رجل من صميم الشعب ليجمع الناس حوله باسم القرآن ، ويقول لهم ان الله قد سوى بين الناس بالحق ، وجعل فضيلتهم عنده على اساس العمل والتقوى .

خيل الى بعد ان انطوت حياة الرجل على هذه الصورة العجيبة ، وثار حولها ذلك الغبار الكثيف ، ان وقتا طويلا يجب ان يمر قبل ان يقول التاريخ الحق كلمته ، ويروى المؤرخ النزيه قصته .

غير ان الظروف السياسية فى مصر سرعان ماتغيرت وامكن ان يكشف التحقيق فى بعض القضايا بطلان كثير مما وصمت به دعوة الاخوان المسلمين من ادعاءات ، وان يبرأ جانب هذا الرجل بالذات فيبدو نقيا طاهرا .

وكنت قد التقيت بالرجل فى القاهرة سنة١٩٤٦ ثم عدت الى القاهرة مرة اخرى سنة ١٩٤٩ بعد ان قضى ، وحاولت ان اتصل ببعض الدوائر التى تعرفه فسمعت الكثير مما صدق نظرتى الاولى اليه .

فقد علمت انه كان فى ايامه الاخيرة يحس بالموت وكان الكثير من محبيه ينصحه بالهجرة او الفرار ، او اللياذ بتقية او خفية ، فكان يبتسم للذين يقصون عليه هذه القصة وينشد لهم شعرا قديما :

اى يومى من الموت افر

يوم لا قدر ام يوم قدر

يوم لا قدر لا ارهبه

ومن المقدور لا ينجو الحذر

وكان لا ينى لحظة عن محاولة استخلاص انصاره من الاسر ، وكان يبلغ به الامر مبلغه ، فيستيقظ فى الليل . ويضع كلتا يديه على اذنيه ، ويقول :

انى اسمع صياح الاطفال الذين غاب اباؤهم فى المعتقلات .

اغراه الانجليز فرفض

ان تاريخ جهاد « الرجل القرآنى » طويل .. ولكن أخصب سنواته أيام الحرب .. منذ ان خرج من المعتقل عام ١٩٣٦ ، فى هذاالوقت الذى شغلت الحرب الدنيا جميعها، عن الأحزاب ، وعن السياسة، وعن كل شيء ، كان الرجل لا ينام ، كان يسعى ويطوف ويذهب الى كل قرية وكل نجع وكل دسكرة يفتش عن الشباب ، ويحدث الشيوخ ، ويتصل بالعظماء والعلماء ، ويومها بهر الوزراء ، واعلن بعضهم الانضمام الى لوائه الخفاق ، وجيشه الجرار .

وحاول الانجليز أن يقدموا عروضاسخية .. فرفضها الرجل فى اباء .. ونامت الأحزاب فى انتظار الهدنة ، وظل الرجل الحديدى الاعصاب يعمل اكثر من عشرين ساعة لايتعب ولا يجهد ، كانما صيغت أعصابه من فولاذ .

لقد كان يحب فكرته حبا يفوق الوصف ، ولم يكن فى صدره شيء يزحم هذه الدعوة . كان يعشق فكرته كانما هى حسناء ! لا يجهده السهر ، ولا يتعبه السفر وقد أوتى ذلك العقل العجيب ، الذى يصرف الأمور فى يسر ، ويقضى فى المشاكل بسرعة ويفضها فى بساطة ، ويذهب عنها التعقيد .

كان لا يحتاج الى الاسهاب ليفهم اى امر ، كانما لديه اطراف كل امر، فما انتلقى اليه اوائل الكلمات حتى يفهم ما تريد ، بل كان احيانا يجهر بما تريد ان تقول له ، ويفتى لك فيما تريدان تسال عنه .

كان نافذ البصيرة .. يرى ما وراء الاشباح .. فيه من ذلك السر الآلهى قبس .

كان يلتهم كل شيء ، لاتجد علما ولا فكرا ولا نظرية جديدة فى القانون او الاجتماع او السياسة او الادب ، لم يقراها ولم يلم بها .

« وحدثنى الرجل القرآنى عندما اخذت اراجعه رايه فى صبغة الاسلام للشرق :

قال : اضرب لك مثلا بتركيا : انها ستعود الى الاسلام وان عوامل ذلك العود قد تبدت منذ الآن .
كان هذا الحديث بينى وبينه عام ١٩٤٦ وقد

لاحظت فى السنوات التالية ما تحقق من قول حسن البنا فى مايو ١٩٥٠ بعد ان مضى الرجل الى ربه حيث هزم حزب مصطفى كمال وانتصر الحزب الذى كان يقال عنه انه رجعى .

وسالتهعن الصوفية والتصوف وهل هومن الاسلام

وكان ذلك على اثر ما نشرته بعض الصحف (١) من انه سلالة مغربية تعتنق الطريقة الشاذلية فكان مما افضى به الى ان الصوفية النقية البعيدة عن التعقيد هى من لباب الاسلام ، وانها هى الدرجة التى يصل اليها الرجل الحق . وانالصوفية بالمفهوم الاصيل تمد الطبع بحب الجهاد والكفاح وافتداء الفكرة وانه يجب أن يرقى اتباعه الى هذه الدرجة ، وانه لا بأس

---

(١) كانت جريدة الخبر قد نشرت فى ٢١ مارس ١٩٤٦ فصلا من فصول عنوانها « رهبان الليل وفرسان النهار » ، جاء فيه قول كاتبه : والذين يدرسون التصوف يعلمون ان الطريقة الشاذلية بقدر ما تحافظ على أساس الشريعة والتربية الاسلامية تحمل سر من اخطر الاسرار الوطنية الاسلامية لا يتنبه له الا من درسوا تواريخ التعميرات فى بلاد المغرب الاقصى والادنى ومن يعلمون مدى نفوذ الصوفية فى هذه البلاد وطريقة تربيتهم للمريدين ، لقد استطعتم ان تفهموا ان الاخوان كانوا يعملون للتربية الروحية ثم اختاروا سبعة من الخلفاء للاشراف على الاعداد للجهاد . هذه الطريقة الشاذلية التى انتهت بالمختار والسنوسى وعبدالكريم ،. ثم بالادارسة أولئك الذين يعتبرون من اكبر الائمة الشاذلية هناك ، ان الشاذلية عقيدة روحية سرقها هتلر وموسلينى وستالين ـ وهى الاعداد العميق والتربية النفسية والصلة بالله وحمل المريد على التطهر والتسامى لادراك ماله وما عليه عن طريق العقيدة ثم تركه بعد ذلك ليدافع عن عقيدته دفاع المالك لا دفاع المقلد ولا المدفوع ولا الاجير ولا المجامل .

على الاخوان من أن ياخذوا المعانى القوية الكامنة وراء مظاهر الصوفية فينقلوها الى دعوتهم دون ان يتقيدوا باثوابهـا القديمـة او مظاهرها التى لا تتفق مع روح العصر .

فلما افضيت اليه بخواطري ، فى الخوف من ان يجتمع الناس جميعا على دعوة واحدة لا سيما وان هناك من المواهب الاسلامية ما يحول دون ذلك .

قال لى : ان هذه الخلافات لا تحول دون ارتباط المسلمين ، وانها احدى عوامل السعة ومقدرة الاسلام على مجاراة العصور والأزمنة والاقطار .

« ونحن نعتقد ان الخلاف فى فروع الدين امر لابد منه، وضرورة لابد منها، وقد قال الامام مالك للخليفة ابى جعفر المنصور حين طلب اليه ان يوطىء للنـاس كتاب يجمعهم عليه : قال ان اصحاب رسول الله قد تفرقوا فى الامصـار وعند كل قوم علم ، فاذا حملتهم على راى واحد تكون فتنة . فضـلا عن ان التطبيق يختلف باختلاف البيئات ، وقد افتى الامام الشافعى فى مصر بغير ما افتى به فى العراق وقد اخذ فى كليهما بما استبان له ولذلك فان الاجمـاع فى الفروع مطلب مستحيل وهو يتنافى مع طبيعة الاسلام، ونحن نلتمس العذر لمن يخالفوننا فى الفروع ، ونرى ان هذا الخلاف

ليس حائلادون ارتباط القلوب وتبادل الحب والاخوان اوسع الناس صدرا مع مخالفيهم » ،

* ولما سألته عن الاسلام والسياسة وانا ارى انهما لا يتصلان بحال .

قال لى : ارى ان الاسلام بغير السياسة لايكون الا هذه الركعات وتلك الألفاظ وان الاسلام فى الحق عقيدة ووطن وجنس وسياسة وثقافة وقانون ولو انفصل الاسلام عن السياسة لحصر نفسه فى دائرة ضيقة ولما ترك للمسلمين الا القشور والمظهريات والأشكال .

.. وقال لى فيما قال : ان سر انتصار الغرب وظفره هو الاسلام ،

قلت مستغربا كيف : قال من ناحيتين انه حفظ التراث القديم وزاد عليه حين اسلمه لأوربا عن طريق قرطبة والقسطنطينية ، وان الغرب انتصر باخلاق الشرق ومبادئه ، فقد عرف الغرب الحصيف كيف وصل الشرق بهذه الاخلاق الى الذروة فأسس تلك الامبراطورية الضخمة فاستثمار هذه الأخلاق ونجح حين غفل عنها الشرق وهو صاحبها وتخلف .

ومضى يقول لى : ان ماتراه الآن فى الشرق ،

ليس هو الاسلام ولكنهم المسلمون : اسما ووراثة ، هؤلاء الذين لو فهموا حقيقتهم لوصلوا .

وحدثني بعض اتباع الرجل القرآني عما لقي الرجل ابان زيارته لأرض الحجاز ، وكيف تقاطرت على بيته الذى كان ينزل فيه ، وفـود المسلمين من اندونيسيا وجاوه وسيلان والهند ومدغشقر وربونيون ونيجريا والكمرون وايران والافغان تتعرف عليه وتجتمع به وهو مع كل مجموعة يتحدث عن أمور هى مصـــدر اهتمام الفريق الذى يلتقى به ، يحدثهم عن قضاياهم ومشـــاكلهم فيبهرهم كانه قادم على التو من بلادهم وليسوا هم القادمين عليه.

وكان فريق من اتباعه يهرعون اليه يحدثونه عما يقول بعض المتشددين فيقول : لا توحيـد بغير حب ، لا توحيد بغير حب .

واعجب العجب أن تستمع الى الكلمات التى يلقيها الرجل الى اتباعه : وفيها تتمثل التضحية الخالصـة والايمان :

* « اننا قد عرفنا الطريق الى أوطاننا الاسلامية: انها هى الجهاد والموت والفـداء : انمـا هى الطريق الوحيد الذى سلكه المؤمنون فى كل زمان ومكان.

* « ان الدنيا كلها تائهة ضالة تبحث عن الحق والمثل العليا فلا تجده فيما لديها من نظم وفلسفات ومبادىء : رسالتكم العظمى للانسانية أن تحرروها وتنقذوها وتسعدوها .

* « ان الشرق يتهيأ لنهضة كبرى ووثبة عظمى وان الغرب يقف له بالمرصاد ولا بد لنا من أن نتسلم راية الحضارة الانسانية لنسعدالناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتخبط .

* « ان الدنيا حائرة ضالة لاهية : وكلها تنظر الى القيادة ومكانها شاغر ولن يملأها غيركم لاقرار رسالة السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحقاق الحق وتحرير الانسان بمبادىء من وحى السماء .

« ومما استلفت نظرى فى الرجل القرآنى انه يضع الحدود بين الخصومات الشخصية والخصومات الفكرية : وفى هذا يقول :

« والخصومة بيننا وبين القوم ليست خصومة شخصية ابدا، ولن تكون ولكنها خصومة فكرة ونظام: هم يريدون لهذه الأمة نظاما اجتماعيا ممسوخا من تقليد الغرب فى الحكم والسياسة والقضاء والتعليم

والاقتصاد والثقافة ، ونحن نريد لهـا وضعا ربانيا سليما من تعاليم الاسلام وهديه وارشاده) .

ماذا ذهبنا نتعرف على حقيقة الاسلام كما يفهمه (حسن البنا) وجدناه (عمريا) : انه يفهم الاسلام كما عرفه عمر بن الخطاب .

« اذا احسنت فاعينونى واذا اسأت فقومونى »

ويفهمه كما عرفه ابو بكر : الضعيف عندى قوى حتى اخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه ، اطيعونى ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم .

وكان يرى ان يكون الحاكم المسلم من الشجاعة بحيث يقبل ما قبل عمر عندما جابهه الرجل بكلمة (اتق الله) فقال دعها فليقلها لى ، لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها .

ويرى مسئولية الحاكم فى حدود قول عمر :

« لو عثرت شاه بشاطىء الفرات لظننت ان الله عز وجل سائلى عنهايوم القيامة » .

ويرى الحاكم من حيث القدرة على الانصاف من النفس كقول عمر « اصابت امراة واخطا عمر »

ويؤمن بنطبيق نظام عمر فى القضاء اجعل الناس عندك سواء . لا تأخذك فى الله لومه لائم ، واياك والاثرة والمحاباة فيما ولاك الله ،

ويردد فى أكثر من مرة قول الرسول لاسامه : اتشفع فى حد من حدود الله والله لو ان فاطمه بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

ويحب ان يطبع المسلم حياته بطابع كلمة عمر الخالدة :

« احب من الرجل اذا سيم الخسف ان يقول (لا) بملا فمه .

وهو على هذه الاسس من المفاهيم الاسلامية العميقة كان ينشىء جيله ويبنى كتيبته ويرسم «الطوبا» التى اذا طبقت حقق الاسلام فى الشرق دوره وزحف الى مكان الزعامة العالية والصدارة الانسانية .
ويرى أن قاعدة الاسلام الاساسية هى « لا ضرر ولا ضرار » .

ويؤمن بسد الذرائع واعطاء الوسائل احكام المقاصد والغايات .

وجملة القول فى الرجل القرآنى : انه يفهم الاسلام

فهما واضحا سهلا يسيرا كما جاء فى حديثه معى ، على الطريقة التى فهم بها محمد الاسلام انه قريب فى نظرى من ابى حنيفة الذى اصر على رفض القضاء ، ومالك الذى افتى فى البيعة وابن حنبل الذى اريد على هوى فلم يرد .

واجد حسن البنا قد حرر نفسه من مغريات المجد الناقص . ومفاتن النجاح المبتور ومثل هـذا التحرر فى نظر امرسون هو غاية البطولة ولذلك فلم يكن عجيبا ان يقضى الرجل على هذه الصورة العجيبه فكان فيها كشأنه دائما . غير مسبوق .

كان الناس يرونه غريبا فى محيط الزعماء ، بطابعه وطبيعته . فلما مات كان غريبا غاية الغرابة فى موته ودفنه . فلم يصل عليه فى المسجدغير والده وحملت جثمانه النساء ولم يمش خلف موكبه احد من هؤلاء الاتباع الذين كانوا يملأون الدنيا لسبب بسيط هـو انهم كانوا وراء الاسوار .

لقد نقل الرجل بعد ان اسلم الروح الى بيته فى جوف الليل ومنع اهل البيت من اعلان الفاجعة . وغسله والده . وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب . ولقد كان خليقا بمن سلك مسلك ابى حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل ، ان تختتم حياته على هـذه الصورة الفريدة

المروعـة ، التى من اى جانب ذهبت لستعرضـها ، وجدتها عجيبة مدهشة .

انه كان يدهش النـاس فى كل لحظات حيـاته ، فلا بد ان يدهش الاجيال بختـام حياته ، ان الالوف المؤلفة قـد سارت فى ركب الذين صنع لهم الشرق بطولات زائفة ، افلا يكون حسن البنا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق .

ان هناك فارقا ازليا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا لله ولرسوله ان هذا الختام العجيب سيظل مدى الاجيال يوقد فى نفوس رجال الفكر النور والضياء ، ويبعث فى قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق فى نفوس اهله حتى يمكنوا له .

ان مقتله شبيه بمقتل الحسين ، انها العوامـل المختلفة التى تجمعت لوضع حـد للفكرة الحية التى كانت تندفع الى الامام كالاعصار .

وحين عجز (القضاء) انفذ (القدر) حكمه .

ان الامر الذى اسأل عنه فلا اجد له جوابا : هل هناك علاقة ما بين الاسلام كما كان يفهمه حسن البنا ويدعو اليه وبين نهايته؟ ان كثيرين يدعون الى الاسلام ويحملون اسمه ، فهل هناك خلاف جوهرى بين ماكان يدعو اليه حسن البنا وما يدعو اليه هؤلاء .

لانى لا اعرف الاجابة الصحيحة ادع ذلك للتاريخ»